الهوية والمدينة
في
شعر أحمد المجاطي
قراءة في الواقع الحضاري

إعداد:

د. عادل محمد عبد الحميد علي نيل

مدرس الأدب والنقد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بكفر الشيخ- جامعة الأزهر

مدخل

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه واستن بسنته إلى يوم الدين، وبعد

فمع التحولات الجوهرية والوثبات المتلاحقة التي يشهدها الواقع الإنساني، ومع خضوع المجتمعات والشعوب لمستجدات الحضارة، وتفاوتها في مستوى الاستجابة لانعكاسات تلك المستجدات، شكلت المدينة قضية من قضايا القصيدة العربية الحديثة لدى بعض شعرائها، اختلف مدى حضورها ووظيفتها الإبداعية من شاعر إلى آخر، بحسب اهتماماته ورؤاه في التعبير عن قضاياه، ولكن الثابت أنها تعكس بكل دلالاتها ووظائفها- لدى الكثيرين- أزمة الحضارة التي يعيش في أتونها الشاعر العربي، وتجسد ذلك الصراع الذي يعبر عن صخب الحياة الذي تآكلت معه كثير من القيم الروحية التي عاش في ظلها، باعتبارها جزءًا من هويته ومقومات وجوده الإنساني.

وعلى الرغم من أن المدينة- بوصفها موضوعًا شعريًّا- ليست جديدة على مضامين القصيدة العربية؛ إذ عرف شعراؤها الحنين إلى الأوطان، ووصف معالم حضارة الدولة العباسية بما فيها من نوافير وجسور وحصون، فضلًا عن رثاء المدن والممالك الزائلة بما فيها من معالم الحضارة العربية والإسلامية وشواهدها، ولكنها مع ذلك لم تكن تشكل لديهم وجهًا من وجوه المأزق الحضاري الذي أحدث همًّا عميقًا في وجدان الشاعر المعاصر[1]، وتحولت معه المدينة من مجرد حيز

---

[1] يذهب الدكتور محمد حمود إلى أن العرب منذ الجاهلية كانت لهم مواقفهم الواضحة من الحضارة المقابلة للبداوة، وأن موقف الشاعر العربي من المدينة ليس جديدًا كظاهرة، وأن شعراء العرب لم ينتظروا العصر الحديث ليعيشوا تجربة المدينة، وإنما كانت مواقف العربي ==

جغرافي لطبيعة حياة الحضر التي تقابل حياة البادية إلى حيز يرتبط بالقلق والمعاناة الروحية، ويعبر عن إحدى مآسي الإنسان المعاصر التي ترتبط بالحديث عن القيم والثوابت التي رأى البعض في هذا المجتمع تهديدًا لرسوخها، بل ووجودها.

وإذا كان هناك من يذهب إلى أن شكوى المدينة لدى الشاعر العربي المعاصر قد أتت من قبيل محاكاة القصيدة الغربية التي تأثر شعراؤها بالصدمة الحضارية، وراحوا يشكون فيها شعورًا عميقًا بالضياع والقلق النفسي إزاء تعقيدات مجتمع المدينة وصراعاته، فإن هناك من يرى في تلك التبعية تهوينًا للأمر، «واختزالًا لمعاناة حادة زلزلت وجدان الشاعر الحديث، وأحدثت ارتباكًا في قيمه ومقاييسه، فتمزقات الإنسان العربي الحضارية أو العصرية أكثر تعقيدًا وأكثر تنوعًا من تمزقات الإنسان الغربي المعاصر»[1]، وهي معاناة يعمق تمكنها وصدقها تلك التجاربُ الشعريةُ التي شكلت المدينة فيها حضورًا لافتًا- كتجارب حاوي، والسياب، وعبد الصبور، وحجازي، ودنقل، وغيرهم- بما يدرأ عنها الافتعال، أو المحاكاة والتبعية الوجدانية.

==

البدوي من الحضر مبثوثة في حنايا التراث، مثلما حملتها بعض قصائدهم، كما في لامية الشنفري، وابن الرومي في بائية له، وكما في إحدى ميميات أبي نواس التي يظهر فيها موقفه من الحياة الحضرية. (يُنظر: الحداثة في الشعر العربي المعاصر: بيانها ومظاهرها، د. محمد العبد حمود، الشركة العالمية للكتاب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٨٦م، صـ٢٥٤ وما بعدها).

[1] المرجع السابق، صـ٢٥٦، ويُنظر في ذلك أيضًا: اتجاهات الشعر العربي المعاصر، د. إحسان عباس، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد الثاني، فبراير، ١٩٧٨م، صـ٨٩.

ولعل النزعة الروحية التي تتسم بها الشخصية العربية- في مقابل مادية تغرق فيها الشخصية الغربية- من شأنها أن تهيئ سببًا مباشرًا في تأجيج مشاعر المعاناة لدى الشاعر العربي إزاء عالم المدينة الذي شكل رؤيته لذاته ولمجتمعه وللحياة كلها؛ بما يجعل وجعه الصارخ في التعبير عن موقفه من هذا المجتمع من أعمق أوجاع القصيدة العربية وأصدقها.

وقد أخذت المدينة لدى الشاعر المغربي أحمد المجاطي[1] حيزًا واضحًا في تجربته الإبداعية على قلتها، بل يمكننا أن نقول إن المدينة هي المدار الذي دارت فيه كل تجاربه الشعرية، وقد تبلورت صورتها في موقف رافض، يتأسس على فهم عميق لواقعه الاجتماعي والحضاري، وتكفينا نظرة سريعة إلى عناوين قصائده؛ كي نقف بوضوح على هذا الحضور الطاغي لصورة المدينة لديه: (القدس، كتابة على شاطئ طنجة، سبتة، الدار البيضاء، وراء أسوار دمشق، مدينتي، أكزوديس في الدار البيضاء)، فضلًا عن مضامين قصائده المشحونة

[1] أحمد المعداوي المجاطي: (١٩٣٦- ١٩٩٥): شاعر مغربي من مواليد الدار البيضاء، حصل على الإجازة من الجامعة السورية، ثم عاد إلى المغرب، وواصل دراساته بها، فحصل على دبلوم الدراسات العليا من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط سنة ١٩٧١، ثم دكتوراه الدولة في الآداب سنة ١٩٩٢م عن دراسته (أزمة الحداثة في الشعر العربي)، ويعد المجاطي من رواد القصيدة المغربية الحديثة، له ديوان وحيد بعنوان (الفروسية)، وقد فاز بجائزة ابن زيدون للشعر سنة ١٩٨٥م، وهي جائزة يمنحها المعهد الأسباني العربي بمدريد/ أسبانيا لأحسن ديوان بالعربية والأسبانية، كما فاز بجائزة المغرب الكبرى للآداب والفنون سنة ١٩٨٧م، (يُنظر: قاموس الأدب العربي الحديث، إعداد وتحرير: حمدي السكوت، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٩م، صـ٦٧)، وقد جمع ديوانه سبع عشرة قصيدة، كتبها بين: ١٩٦٢م- ١٩٧٧م، ما عدا قصيدته (الحروف) التي نشرها عام: ١٩٨٥م، وبالإضافة إلى قصائد الديوان هناك عدة قصائد منشورة في دوريات، لم يتضمنها. (ينظر: الفروسية، أحمد المجاطي، منشورات المجلس القومي للثقافة العربية، المغرب، ط١، ١٩٨٧م).

برؤيته للمدينة التي اختار لها القصيدة الحديثة، كما اختار لها خطابًا شعريًّا كثيفًا ارتفع عن المباشرة، وسرد وقائع يومية وحوادث فردية، متجهًا بلغته المجازية إلى توصيف قلقٍ أعمق في باعثه من مجرد مشاهدات حياتية، ليعبر عن أزمة واقعه الحضاري، «فالديوان يتخذ السقوط والخيبة والهزيمة أشكالًا متعددة للواقع الذاتي والواقع الموضوعي، هذه الأشكال تتجلى في صورة الموت والهزيمة والحزن والغربة والانتظار والسكوت والشعر الذي لا يسعفه في وصف واقع الحال»[1]، وهو في تعبيره عن هذا الواقع لا يعبر عن وجدان فردي، وإنما يعبر عن الذات الجمعية، متخلصًا من دائرة الذاتي الضيقة، ومنفتحًا على البعد الحضاري والإنساني في الكشف عن طبيعة أوجاع الشاعر العربي نتيجة أدواء مادية الواقع التي خلفها مجتمع المدينة، ويمكننا في التالي أن نحدد- في ضوء تجربة المجاطي- أصداء هذا الوجع ومظاهره.

ويسعى هذا البحث إلى رصد أزمة الهوية العربية وواقعها الحضاري من خلال تجربة المدينة في شعر المجاطي عبر ثلاثة محاور، وهي المدينة وشكوى الشتات، المدينة والسقوط الأخلاقي، المدينة والسقوط الحضاري.

---

[1] بنية السقوط والانتظار في ديوان الفروسية لأحمد المجاطي، حسن الرموتي، مجلة طنجة الأدبية، المغرب، العدد (٢٦)، مايو، ٢٠١٠م، صـ25.

المحور الأول: المدينة وشكوى الشتات

المدينة- لدى البعض- حياة تملؤها وحشة الاغتراب، ويقتل بهجتها الصراعُ اليومي وتطاحناته، وتغتال بساطتها التعقيداتُ، ويمزق أهلها التيهُ في سراديبها، وتخنقهم دروبها الضيقة رغم فساحتها، ومن ثمَّ ارتبط موقف بعض الشعراء من هذا المجتمع بجانب روحي يتشح بالكآبة، والانغلاق والعزلة، وشكوى الواقع، والنقمة على الحياة بكل ما فيها؛ نتيجة الشعور بالضياع والشتات الروحي، والفزع من الآتي الذي يدفع إلى الهروب من هذا الواقع الحياتي والنفسي القاتم.

والمدينة في وجدان المجاطي خراب تتردد في أركانه الأشباح، وتعلو في جنباته زعقة البوم، وتحكمه غلظة لا تبالي بأنات المتوجعين وزفراتهم، فيرى فيها ظلامًا روحيًّا وضياعًا في حياة من الشتات والصخب والعتمة، حتى أطبق اليأس قبضته على من يرفضون ذلك الواقع الممزق، فأخذتهم مشاعر من الاغتراب والتيه بين ما عليه الواقع وبين ما يتطلعون إليه، يقول في قصيدة (وراء الجَزْر):[1]

رَبِّ مَاذا يَفعلُ النورُ هنا واليأسُ في الدَّار مقيمْ
أبدٌ من زرقةِ عاتٍ.. غفا من خلفه الصمتُ العظيمْ
يُفزِع الموتَ ولا تَفزعُ منها زعقةُ البومِ الذميمْ
آهِ لو يُسعفني الجَزْرُ فأغزو مخبأ الليلِ البهيمْ
حيثُ أرضُ الحقلِ أشواكٌ وعينُ النجمِ سمسارُ أثيمْ
ربِّ ماذا؟ أرْجلٌ في اللُّجِ موجٌ يَخْنُقُ العَزْمَ الحَليمْ
أفلت المجدافُ غامَ الشطُّ يا حبةَ رملٍ في سديمْ

[1] وراء الجزر، أحمد المجاطي، مجلة أقلام، المغرب، العدد الأول، يناير، 1964م، صـ٢٨.

يخضع مجتمع المدينة لسطوة ذلك التحول الذي يجسد صورته وقوته عنوانُ القصيدة، فما يحدثه الجَزْر من انكماش وتآكل وانحسار يماثل ما تحدثه تحولات المدينة التي تُخضِع من فيها وما فيها لطبيعتها من انكماش في مساحة القيم، وتآكل للثوابت الضابطة، وانحسار للترابط الإنساني بين أفراد هذا المجتمع.

وتحتشد القصيدة في مقاطعها الثلاثة بالألفاظ التي تجسد عمق التأثيرات النفسية التي أحدثتها تلك التحولات في ذات الشاعر، سواء بالاتكاء على توظيف ألفاظ من الظواهر الكونية باعتبارها جزءًا من إيماءات التعبير عن قضيته: "الجَزْر الكظيم، النجم العقيم، الشط الغائم، لجة البحر"، أو من خلال استدعاء ألفاظ تشتق دلالتها من رؤيته القاتمة لمجتمع المدينة: "الميت الرميم، الصمت اللئيم، الليل البهيم، القلب السقيم"، أو من خلال توظيف بنية التضاد التي تعمق معنى التحول، وتصف حالة الضيق والاختناق التي لخص الشاعرُ تأثيرها النفسي في المقطع الأول من القصيدة بقوله: "آه كم يخنقني الجزر"؛ معبرًا بهذا المعادل عن الواقع الداخلي/ النفسي من خلال مظهر الانحسار الخارجي في الجَزْر.

وفي مقابل تلك الصورة القاتمة لمجتمع المدينة التي يرسم ملامحها مبدأ السمسرة والنفعية والمادية يستدعي المجاطي مجتمعًا يغاير ذلك التحول، فيقول في المقطع الثاني من قصيدته:[1]

هاهنا لا تزحفُ الأشباحُ من جوعٍ هُنا الربُّ رحيمْ
فرحةُ الحنّاءِ لا تمسحُها الظلمةُ من كفِ اليتيمْ
هاهنا والنجمةُ العذراءُ في الزرقةِ صحوٌ لا يغيمْ

[1] السابق، صـ٢٧.

يقيم المجاطي مقارنة- وهي مقارنة تقبلها القراءة التأويلية للنص بقرائنه، ويسمح بها الحضور الطاغي لقضية المدينة في تجربته- بين مجتمعي الريف والمدينة، كل طرف من تلك الثنائية يحيل إلى قيم تتنافر مع قيم الطرف الآخر، منتصرًا في ذلك لمجتمع الريف الذي لا تزحف إلى دروبه أشباح الجوع، وقسوة الحياة التي تخنق بهجة الأرواح، وتقتل ظلمتها فرحة اليتيم، والضعفاء والمهمشين، والمقهورين بين أنيابها ومخالبها التي تنزع عن كل شيء فرحته وبراءته، فبقدر ما يرى في المدينة دنسًا وقسوة وقتامة يدين معها هذا المجتمع فإنه يرى في الريف نقيض ذلك، وتعميقًا لتلك الإدانة نلحظ بوضوح تطرف تلك النظرة المقارنة بين المجتمعين، حين يقصر رحمة الربوبية على الريف دون المدينة، ولعل ذلك يعود إلى ارتباطها- لدى الشاعر وغيره من بعض الشعراء- بنظرة يحكمها القبح، في مقابل مثالية حالمة للريف، «فإذا كان معظم ما قاله شعراء الحداثة عن المدينة شكل قسمًا كبيرًا من حقيقتها فإن معظم ما قالوه عن "الريف" يشكل "ريفًا" حلموا به، أو بتعبير أدق كان الريف يشكل "رمزًا" يجسد الإنسانية في طهارتها وبكارتها ونقاوتها الأولى»[1].

ويعبر الشاعر في قصيدته (مذكرات مشردة) التي أتت في أربعة مقاطع عن اكتمال دائرة الهموم حين راح يتذكر الأمس، ويتخيل الغد؛ فلم يجد في حاضره غير انحناءات عجوز مجهد يتوكأ على منسأته الخائرة حاملًا آلام المسيح وجَلَده، وقد انطفأ سراج دربه، والشاعر في تجسيد تلك المكابدة التي تصاعدت معها الشكوى أراد التعبير عن عمق حالته التي تلمس أبعادًا نفسية عميقة، وهو أمام ذلك يلوذ بهذا الرمز الذي راح يلتمس فيه أقل القليل الذي يرفع عنه تلك

[1] الحداثة في الشعر العربي المعاصر، صـ٢٧٢.

الحالة القاتمة والغائمة حتى يسد رمق الحياة فيه، فيقول في المقطع الأخير من مذكراته المشردة: [1]

لـو أن صفصـافًا كئيـبَ الظـلِ منخـورَ الجُـذوعْ
يمـدُّ طَيفًـا مـن جنـاحٍ أو رفيفًـا مـن ضُـلوعْ
لـو خيمـةً منصـوبةَ الأوتـادِ في ليـلِ الـدموعْ
شـراعُها مـن قـريتي ثكـلٌ وتشـريدٌ وجـوعْ
تضـمني تشـدُ أحزانـي لأحـزانِ الجُمـوعْ

المجاطي لا يلوذ بالريف حنينًا لموطن فارقه- إذ كانت نشأته في أحياء المدينة البسيطة لا بين مرابع الريف- أو التماسًا لمشاهد الطبيعة، وإنما يلجأ إليه هربًا من واقع نفسي ممزق في مجتمع المدينة، حتى وإن توفر لهذا المجتمع نصيب من دعة المدَنِيَة والأضواء ومغريات الفرص التي لا تتوفر للريف، وهو ما يشهد به واقع النزوح المستمر والهجرات الزاحفة إلى المدينة وبريق أضوائها؛ ولكن ما فيها من تعقيدات قد أسلم الشاعر لمدارات التيه والشتات والتمزق النفسي والانعزال عن الجموع الذين يسعى إلى الانخراط معهم ومع أحزانهم، ودفعه إلى الريف الذي يحقق لروحه هذا الاندماج المفقود في واقع المدينة، حتى وإن كان ذلك في أشد مظاهر هذا الريف فاقةً ووجعًا واحتماءً بالضعف المادي لا الروحي؛ وهو ما يجعلنا نفسر كلمة (الجوع) في هذا النص وسابقه تفسيرًا قائمًا على الجانبين المادي والروحي، ففي قصيدته (وراء الجزر) جعل الريف مهربًا من جوع المدينة الروحي التي لا تعرف رحمة، وتمتلئ فيها النفس بالفزع الذي يثيره زحف الأشباح في دروبها، بينما في النص الأخير ارتضى ذلك الجوع المادي

[1] مذكرات مشردة، أحمد المجاطي، مجلة أقلام، يناير، 1964م، صـ٧.

في الريف هربًا من سابقه، وهو ما يكشف عن أن عنصر المكان الحاضر في نصوص الشاعر يأخذ خصوصيته من الأبعاد الإنسانية فيه، فهو يبحث عن جوهر الإنسان الذي يراه مختلفًا اختلافًا بيّنًا بينهما، «فإنسان الريف وإنسان المدينة جوهران مختلفان، والمدينة تناقض الريف وتتحداه، الريف غريزة وفطرة، والمدينة نعش السكارى» [١] .

ومن مظاهر الوجع الذي يعكسه واقع المدينة في شعر المجاطي ذلك الاغتراب الروحي والشعور العميق بافتقاد الهوية الذي يعمق لديه ذلك الإحساس بالتيه والضياع وتصدع هويته حين يشعر بافتقاد الرابط بين مقومات وجوده وبين ما استجدّ في المدينة من تحولات غريبة عليها، يقول مخاطبًا مدينته (الدار البيضاء) التي حملت القصيدة اسمها: [٢]

لماذا تدورُ الحُروفُ التي تلفُظُ اسْمَكِ

فِي قبضةِ الرِّيحِ

قُبَّعةً

.. ..

هلْ أنتِ سائحةٌ

يَستبِي الرملُ أحلامَكِ البارِسيةَ

الاغتراب الذي تعيش فيه تلك المدينة في قبعة غربية تضيع معها الحروف في قبضة الريح يعبر عن انسلاخ وهلامية وضبابية، وقد أتى التعبير عن هذا الاغتراب في سؤال يعبر عن تبدل الراسخ/ الهوية، واستنكار المعلوم/ المدينة،

---

[١] الحداثة في الشعر العربي المعاصر، صـ٢٥٩.

[٢] الفروسية، صـ٨١.

وكأنها وافدة تملؤها أحلام باريسية، جعلتها تخلع عنها بردة العربي، فاغترب عنها أهلها، حين عاشت بأحلام غير أحلامها، بل يشعر أن ما فيها من مستحدثات "يَرْسُمُ في كُلِّ شِقٍّ هُويّةً"، مثلما يعبر في القصيدة ذاتها.

وفي علاقة تتكامل مفردات التجربة في تفسيرها يحاول الشاعر أن يمسك ببقايا تلك المدينة الهلامية التي تضيع حروفها في قبضة الريح، فيحاول أن يمسك بالريح لينسج من قيود صدئة راية يحيا في ظلها، وقيثارة شجن يبكي على أوتارها اغترابه وعزلته، وصمتًا غدا شرعة المدينة، وهي مفارقات تقتضيها مفارقات الحياة التي يعيش فيها هذا المجتمع:[1]

هَا أنا ذا أُمسكُ الريحَ

أنسجُ من صدأ القيدِ رايةْ

ومن صدأ القيدِ

مقبرةً للحروفِ

ومحبرةً للسيوفِ

وقيثارةً للشجنْ

وأنتِ على شِرْعةِ الصمتِ

ممدودةٌ

بين قيدي وبينِي

وبين حدودِ الوطنْ

(١) السابق، صـ٨١.

وبهذا الصمت الذي شكل تكراره لازمة من لوازم المجاطي التعبيرية تتعمق تلك الانعزالية، والتعبير عن موقفه النفسي في مجتمع المدينة بالاتكاء على الهشِّ، والاستقواء بالصَدِئ والموات؛ فيمسك بالريح، وينسج رايته من صدأ القيد، ومنه أيضًا يصوغ مقبرة حرفه، ومحبرة سيفه، وقيثارة شجنه، وهي مفارقات تأتي في سياق مشاعر هشة ممزقة في صخب المدينة محكومة بشرعة الصمت الكئيب الذي تعيش فيه الروح، وفي ذلك تقرير لحالة الحزن التي خلفتها المدينة، وألقت بظلالها الموحشة الكئيبة على ذات الشاعر، فتتعمق تلك الانعزالية حين، «يختار الصمت والهامش معانقًا عزلته، ومبشرًا برمزية الكبوة التي سكنت نصوصه كما سكنت حياته، عزلة طارد فيها المجهول وروّضه ودجنه عبر نصوصه المختلفة»[١].

ومن العوامل التي عمقت مشاعر العزلة والاغتراب لدى المجاطي جمود الحياة في هذا المجتمع الصناعي، فتحْتَ وطأة تلك الحياة المادية الفارغة من بساطتها وبراءتها، الممتلئة بضجيج التطاحن والصخب يتأجج الصراع، ويتصاعد هذا الإحساس بالعزلة؛ إذ «إن عاملًا كبيرًا من عوامل إحساس الشاعر المعاصر بعزلته في المدينة يرجع إلى أن مجتمع المدينة الصناعية قد خلا من "رومانسيته" وعذريته وطفولته»[٢]، فنقرأ ذلك بوضوح في قصيدته (من كلام

---

[١] نيكرولوجيا: شعرية المجاطي.. نثرية خير الدين، بشير القمري، المناهل، المغرب، العدد (٥٠)، مارس، ١٩٩٦م، صـ٢٨٥.

[٢] تيار رفض المجتمع في الشعر العربي الحديث في مصر، د. سعد دعبيس، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٢م، صـ١٨١.

الأموات) التي يومئ عنوانها إلى الشعور الكثيف بالهامشية وافتقاد الشعور بالحياة: [1]

أنا المنسيُّ عندَ مقالعِ الأحجارْ

وتحتَ الصخرةِ الصماءِ

تأكلُ من شراييني

مسامير ُ الدُّخانِ

أكادُ لا أصحو ولا أغفُو

تجاوزَني المدى

وانحلَّ ما بيني وبينَ اللهْ

تمزَّقَ كلُّ شيءٍ في يَقيني

ومع أن هذا التعبير المباشر عن الشعور الناقم على الظواهر المميزة للمدينة من الحضارة الإسمنتية والصناعية لم يشكل ظاهرة في نصوص المجاطي فإن تعبيره عن انعكاسات تلك الظواهر هو ما شكَّل الحضور الطاغي في تعبيره عن أوجاع المدينة، إذ تكرر تعبيره عن شعوره الحاد بالعُدْمية والهامشية والنسيان وافتقاد الدور والأهمية في هذا المجتمع.

وتقدم الصورة الاستعارية التي رسمتها تلك الأسطر الشعرية إحساسًا يأتي امتدادًا لمفارقات تناقضاته الحادة، حين يتشكل الدخان مسامير تأكل من شراييه، وفي تلك الصورة من العمق ما يعبر عن نفاذ أثر هذا المجتمع الصناعي إلى أعماق دواخلنا، وبين هذا التطاير والصلابة تناقض يلتقي مع تناقض شعوري

[1] الفروسية، صـ١٠٥.

أودى إلى نتيجة حتمية من الضبابية والتيه والشك في ذات تترنح بين الصحوة والغفوة تعبيرًا عن فقدان اليقين بالحياة التي لم يعد يمتلك فيها غير انتظار غياب يأتي اختيارًا أو إجبارًا، يقول في قصيدته (السقوط): [1]

وقبلَ أن أغمسَ في الضوءِ

سرابَ الشكِّ واليقينْ

أُقيمُ من قهقهةِ السَّكارى

عُرسًا

وراءَ اللحظةِ الشمطاءِ

والدقائقِ العذارَى

أقولُ:

يا أرضُ ابْلَعي ماءَكِ

أو فلتغرقي

في الدمِّ

والأشلاءِ

والأنينْ

هذه الذات المتخبطة في مجتمع المدينة ترتبط إحدى مآسيها بتلك الرؤية النفسية المظلمة التي تحيا في سراب التخبط والعبثية والتيه، ويزيد هذا المشهد قتامة ارتباطه بعنصر الزمن الذي يعيش الشاعر تحت وطأته، وهو في ذلك لا يخشى انفلات الراهن مع تلك اللحظة العجوز، أي أنه لا يخشى الزمن من حيث

[1] الفروسية، صـ٦٤.

انصرامه، وإنما يخشى الغياب الأبدي لما ينبغي أن يتضمنه هذا الراهن من براءة ونقاء وطهر، ولذلك يأتي تناصه مع قوله تعالى ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ [هود- من الآية ٤٤] مبرزًا إنهاء هذا الراهن بغياب اختياري غرقًا في لجة من مفجعات الدم والأشلاء والأنين، حين يفقد الرجاء في نجاة الروح من شتاتها، وحين تقهره ترنحاته بين الشك واليقين، وعبثية الحياة من حوله، وهو اختيار يأتي من رغبة عميقة في تغيير الواقع من حوله، يدفع إليه شعور بالقلق في قسوة المدينة، وهو في ذلك يعبر عن «قلق جيل يسلك عديدًا من الطرق ويستخدم أكثر من وسيلة كي يصل في نهاية الأمر إلى التكامل الذاتي والتكامل الاجتماعي، كي يتغلب على انقسام نفسه وتمزقها في مشكلات متلاطمة بلا حل، وكي يتغلب على الانقسام بينه وبين المجتمع الذي يعيش فيه»[١] ، وهو ما يكشف لنا عن أن تصدع الهوية ليس فقط من خلال مقوماتها الثقافية أو الحضارية، وإنما من تلك الهوية التي ترادف في مفهومها إحساس الذات بكيانها في محيطها المجتمعي.

[١] أدباء في المقدمة، رجاء النقاش، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، كتابات نقدية، (١٣٤)، مايو، ٢٠٠٣م، صـ٧٨.

المحور الثاني: المدينة والسقوط الأخلاقي

إحدى مآسي المدينة لدى المجاطي ترتبط بأزمة أخلاقية أوجدت واقعًا ممتلئًا بالفساد والعهر والتفسخ، يعبر عن هذا الوجه القبيح من وجوه المدينة العاهرة التي تنتزع من الإنسان إنسانيته حين يتحول إلى سلعة للمتاجرة، وفي هذا المجتمع الغارق في حسيته، تغدو «البغيُّ إحدى لعنات المدينة إن لم تكن ألعنها على الإطلاق»[١].

ولا ينطلق الشاعر في تعبيره عن تلك المعاني من نظرة مثالية حالمة بالمدينة الفاضلة، وإنما اتكأ على بُعد اجتماعي واقعي يدين هذا التصدع الأخلاقي الذي يبرر نظرته الرافضة والساخطة على أدواء هذا المجتمع.

ولعل النشأة المحافظة التي شكلت شخصيته، والتزامه بالتعبير عن قضايا مجتمعه وقيمه الراسخة تفسير لموقفه الأخلاقي من المدينة الذي عبرت عنه بعض قصائده، فالمدينة في قصيدته (الخمارة) تعبُر بين التبغ وزبائن الحانات، وهي في قصيدته (الدار البيضاء) عاهرة تشق القميص، وتتخلص في زبائنها من كل شيء إلا زجاجات الخمر والشهوة النابحة في الجسد، يقول في خطابه إلى مدينته الذي يحمل تهكمًا معبرًا عن هذا الوجع:[٢]

فيا أختَ غرناطةِ الجوعِ

شُقّي قميصي

امسحيهِ على جبلِ الرَّيفِ

---

[١] المدينة في الشعر العربي المعاصر، د. مختار علي أبو غالي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، (١٩٦)، أبريل، ١٩٩٥م، صـ١٢١.

[٢] الفروسية، صـ٨٦.

واستخلصي من بقاياي

شيئًا

سِوى الخَمْرِ

والشَّهْوةِ النَّابِحةْ

وهي في قصيدته (ملصقات على ظهر المهراز)- المنطقة التي تقع فيها كلية الآداب بمدينة فاس- مهوى الغرباء الشاربين على أبوابها نخب الرذيلة، وتجمعهم في أحيائها دروب العهر، مفتقدين ذلك النقاء الروحي، ومستسلمين للذة الحسية النابحة، فيخاطب زائر المدينة بالخطاب التهكمي ذاته أن يجعل من (فاس) كأسًا، ينتشي من دمه بها بين رؤوس العصاة الذين يقفون في أحيائها، وكأن المدينة غدت بوابة للرذيلة ومهوى للمفاسد، وفي ذلك إدانة أخرى للمدينة التي جعلها دنسًا لطهر العابرين والغرباء، دون أن يفترض دنس هؤلاء القادمين إليها:[1]

يا أيُّها الوافدُ المُتلفِّعُ

بالدَّمْعةِ النازفةْ

قِفْ على مَدخلِ الحيِّ

حيثُ استدارتْ

رؤوسُ العصاةِ

وهذا دَمِي

ولتكنْ فاسُ كأسكَ

[1] الفروسية ، صـ٤٩.

وفي ليل المدينة يلتحف هذا العهر بالظلمة التي تحوي في جوفها السكارى ورواد الحانات، وما عاد المطر قادرًا على أن يغسل دنس الأرواح، بل راح يجف على طوية غادرها النقاء، وهو موقف يشكل نظرة هؤلاء الشعراء الذين يدينون مجتمع المدينة، «فتصور الشاعر الحديث للمدينة في صورة امرأة، ثم في صورة امرأة متعهرة يكاد يكون قسطًا مشتركًا بين عدد كبير من الشعراء»[١]، يقول في قصيدته (السقوط) خارجًا من دوائر التمرد الرافض والسؤال المستنكر: [٢]

أخرجُ من دائرةِ الرفضِ

ومن دائرةِ

السؤالْ

أراقبُ الأمطارْ

تجفُّ في الطويَّةِ

الأمَّارةْ

تُسعفني الكأسَ ولا

تُسعفُنِي العبارةْ

لكِنَّني أقولْ

شَرِبْتُ كأسِي فاشْرِبِي

أيتُها البحارْ

لم تبقَ إلا ساعةٌ فتخلعُ المدينةْ

---

[١] اتجاهات الشعر العربي المعاصر، صـ٩١.

[٢] الفروسية، صـ٦٤.

أثوابَها

ويقبلُ النهارْ

ومن غبار تلك المعركة المفتوحة مع واقع المدينة الذي يعيش فيه يتبدى صراع مع بنية الزمن، بين ليل المدينة ونهارها، فما بين الترقب والقبول والرفض والانغماس في متاهات الكأس يضيع الإبداع حين لا تسعفه العبارة، وهو ما يشير إلى هذا التيه وافتقاد البوصلة إذ «يضيع الكائن الحي في كآبة المساء بين شوارع المدينة وحاناتها وبين مراودة الإبداع والوقوع في شَرَك العقم واللا إرادية وانعدام الهدف»[١]، يقول في قصيدته (سَبْتة):[٢]

آه قاتلتي أنتِ

حين أجوسُ شوارعَكِ الخَلْفَ

حانًا ومبغَى

وحين أراكِ عطورًا مُهرَّبةً

وخمرًا

وتبغًا

وحينَ أراكِ على مَدخلِ الثَّغرِ

عاشقةً غجريَّةْ

مُضرَّجةً تحتَ أحذيةِ الْهتكِ

---

[١] حداثة التراث وتراث الحداثة في شعر أحمد المجاطي، محي الدين صبحي، (دراسة ضمن الديوان، صـ١٣٥)

[٢] الفروسية، صـ٧٥.

لا حولَ للفتكةِ البِكْرِ فيكِ

ولا حولَ للنخوة العربيةْ

المدينة مبغى كبير تُباع فيه روح الإنسان وجسده، وحانة للسكارى يغيب فيها وعي الإنسان بقيمة وجوده، فلم يعد يعبأ بتلك التحولات التي قضت على الطهر والبراءة والمعاني النبيلة، وقد وظف الشاعر شخصية الغجرية تعبيرًا عن ضياع القيم الروحية مع السقوط الأخلاقي في هذا العالم؛ «فشخصية الغجرية رمز للحيوية الدافقة والبراءة، وكيف أنها لم تستطع أن تتكيف مع جو المدينة المحتقن» [1].

والشاعر يستفز تلك النخوة العربية التي ارتضت انهيار قيمها، إذ إن التردي الحضاري للشخصية العربية مدخله هذا السقوط الأخلاقي، وفي ذلك مساءلة للقيم العربية التي ضاعت وسط انفتاح غير منضبط أنتجته مفاهيم خاطئة ومشوهة للتقدم والتمدن، حتى انخدعت تلك الشخصية في التعامل مع واقعها.

والمدينة لم تكن في عفتها ليلًا لتخلع أثوابها نهارًا، وإنما مظاهر لتحولات بين الضياع والاغتراب في صخب الصباح، والانهيار الأخلاقي في صمت الليل، وما يجمع بين تلك التحولات وجع يتقلب فيه إحساس الشاعر في تلك المدينة، إذ على الرغم من أن الشاعر يجسد قلق الترقب الذي ينتظر به النهار بما فيه من ضجيج المدينة وصخب حياتها فإنه يكشف عن هذا التعري الذي يحيا فيه ليل المدينة، وفراغ روح من فيها، فرحيل النهار إيذان بتحول آخر في تلك المدينة التي تضج بالصخب والضجيج وقوانين "السمسرة" والنفعية التي تحكم ذلك العالم

---

[1] الشعر العربي المعاصر: قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، د. عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، ط٣، د. ت، صـ٣٤١.

المادي، إذ يأتي الليل لتتحول حركتها الصاخبة إلى الكأس في مملكة العري والعهر، فشوارع المدينة ودروبها تختنق باهتراء وتصدع: [1]

تَلبَسُني الأشياءُ

حينَ يرحلُ النهارْ

تَلْبسُني شوارعُ المدينةْ

أسكُنُ فِي قرارةِ الكأسِ

أُحيلُ شَبَحِي

مَرايا

أرقصُ في مملكةِ العَرايَا

العهر والفحش والسقوط الأخلاقي ملامح تشكل وجه تلك المدينة التي تتجسد (في امرأة باغية)، فالليل فيها له دلالاته الموحشة التي يستتر في ردائها هذا التردي الأخلاقي، حين تتحول إلى مملكة للعري، بما في ذلك من ظلال كثيفة لهذا السقوط، «فما يميز تجربة المجاطي الشعرية في علاقتها بالمكان هو أنها تجربة تعيش "ليل المدينة" بكل كثافته ورمزيته، فالصور التي تؤسس حركة النص تتشح بلون السواد» [2].

وقد أسلمته تلك الصورة السوداوية إلى المستحيل في تغيير تلك التحولات العميقة التي سقطت في هوتها المدينة، فلن يستطيع أن ينزع عنها رداء الدنس،

---

[1] الفروسية، صـ٦٣.

[2] شعرية المتخيل وصور المدائن في ديوان الفروسية، سعيد الفراع، مجلة علامات، المغرب، العدد (٣٢)، ٢٠٠٩م، صـ١٢٦.

أو أن يكشف عنها أدواء هذا السقوط، فكيف لعذريتها أن تعود؟! وكيف لها أن ترجع إلى طفولتها؟! وكيف للأعناق بعد قطعها أن تلتئم؟! وكيف للدماء التي تسيل أن تعود؟! وكيف للزمان أن يتوقف؟! وكيف لجبل زالاغ الذي يشرف على مدينة فاس أن يتخلى عن حبه؟!: [1]

إنَّ الرِّباطَ التي تتعهرُ يومًا

تُعيدُ بَكارتَها

تَسْتوي طفلةً

فسلامًا

إذا جاء يومًا قرارٌ

يُعيدُ الرؤوسَ

لأعناقِها

والدماءُ

إلى حيثُ كانت تسيلْ

وقرارٌ بوقفِ الزمانِ

وإجلاءِ زالاغَ

عن حُبِّه المستحيلْ

وقرارٌ يُقيم على الهَرْطَقَاتِ الدليلْ

سلامًا سلامًا

---

[1] الفروسية، صـ٤٩.

والشاعر في هذه المفارقات لا يعمد فقط إلى التعبير عن استحالة تغيير الكائن لتمكُّن التحولات، وإنما يعمد في توظيف بنية المفارقة إلى تشكيل رؤيته التي تقوم على تعرية هذا الواقع الزائف بتناقضاته الحادة غير المعقولة: [1]

أقامتِ الخمارةُ

في باحةِ الجامعِ ركعتينْ

شجرةُ الزقومِ

تفرغُ من صلاتِها

عاريةَ النهدينْ

ترقصُ في أقبيةِ النارِ

وفي أقبيةِ الدُّخانْ

تسقطُ بين الكأسِ والدِّنانْ

أهذه دارُكَ يا لقمانْ

تلك المفارقة التصويرية تفصح عن هذا التناقض في ممارسة الدور، فالحانة تنهض إلى باحة المسجد لتقيم ركعتيها، وشجرة جهنم تقوم إلى صلاتها عارية النهدين، وأقبية النار تتراقص طربًا بين دنان الحانات، وجميعها صور تجسد حالة صارخة من التناقض الذي تعيش فيه المدينة، فالدنس يمارس دور القداسة، والعهر يمارس دور التنسك، الأماكن تفتقد خصائصها وتمارس نقيض طبيعتها في تلك التحولات والتناقضات التي تعيش فيها المدينة.

---

[1] الفروسية ، صـ٩٧.

ومن مظاهر هذا التردي الأخلاقي الذي أتى مع مجتمع المدينة أدواء التسلق والمداهنة والنفاق التي غذتها نفعية طاغية، ففي ملصقته الثالثة من قصيدة (ملصقات على ظهر المهراز) يرصد المجاطي هذا الواقع المتباين الذي خضعت له المدينة، وأكسبها لغة تهدد الأماني التي عاش فيها ولها، وجعل هذا الواقع الجديد من كل شخص عينًا على غيره، وكان "التجسس" على الآخرين ثمرة للوصوليين، وغدت (الجواسيس) طلْع أشجار المدينة، وهؤلاء في مكرهم يلبسون أقنعة الفضيلة، ويتغنون بالقيم والثوابت، ومن ثمَّ «اصطدم بواقع حربائي يلبس أقنعة القيم، ويستن في نفس الآن خططًا لتدميرها فتولد لديه شعور جريح بخيبة الأمل أمام موجات الانحراف والتحريف والسقوط»[1]، يقول:[2]

كانتْ غصونُ الشجرِ

تتساقطُ مثقلةً

بالجواسيسِ...

هل تعلمُ الطفلةُ الوافدةِ

أن عشرًا من السنوات انقضينَ

وعشرًا من السنواتِ

تَكَشَّفْنَ عنْ لغةٍ

تتهددُ حتى الأمانيَّ

فينا

---

[1] الشاعر لم يمت، أحمد اليبوري، مجلة آفاق، اتحاد كتاب المغرب، المغرب، العدد (٥٨)، ١٩٩٦م، صـ٢٩.

[2] الفروسية، صـ٥١.

فالانتهازية والتسلق والنفعية ترسم صورة بغيضة الملامح لمجتمع ترتع في جوانبه مظاهر الشر ومكر الثعالب وغدر العقارب، ونعومة الأفاعي، حيث تبدو المدينة في تلك القصائد «غابة "للوحوش"، ومرتعًا "للثعالب"، ووكرًا "للتجار"، وعاصمة "للطواغيت الكبار" الذين يتفقون جميعًا على اعتصار الخمر من جوع العذارى، والتهام لحم الأطفال الصغار» [1]، فالمدينة لم تترك شيئًا من أمراض الإنسان إلا وضمها جوفها، وفكرة الجواسيس هنا تأتي محملة بأبعاد سياسية واجتماعية في طبيعة مجتمع يغرق أهله في أمراض التملق والوصولية والانتهازية والدسيسة والنفعية وانهيار المبادئ الذي يسمح بأن يكون كل شيء للبيع، والشاعر من خلال هذا القبح المنفر الذي تحمله تلك الأدواء يستدعي القيمَ الجماليةَ التي ينبغي أن تتزين بها منجزات الحضارة الجديدة ومبهرات المَدَنية، بينما على النقيض من ذلك أتت حاملة دمامة وتقيحًا وسقوطًا أخلاقيًّا يفضح تلك المفاسد الاجتماعية التي تشوه هوية الشاعر، وجوهر ذاته، ومقومات حضارته.

وهذه الهوية لا تنفي عن تجربته بعدها الإنساني، إذ إن شعراء هذا الاتجاه الذي يعادي المدينة الغارقة في مفاسد اجتماعية يقلقهم- رغم ما يظهر لديهم من عزلة- مصير الإنسان «فهذا التيار من الشعراء منفي في وطنه، ضائع في مجتمعه، غريب في عالمه، ولكنه لا يميل إلى تسطيح التجربة الإنسانية بتقسيمها إلى خير وشر، وإنما إحساسهم كوني مصيري بالغ الرهافة والعمق»[2]، ولعل ما يمنح تجربة المجاطي هذا البعد الإنساني تلك النزعةُ الروحيةُ التي تمتلئ

---

[1] الحداثة في الشعر العربي المعاصر، صـ٢٥٩.

[2] شعرنا الحديث إلى أين، د. غالي شكري، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٩١م، صـ٢٩ بتصرف.

بها نصوصه في تطهير الإنسان من موبقات الأخلاق وانهيار إنسانيته، من خلال نُبل رسالته التي يحملها بحرقة الذات وعذابها، ومن ثم تأتي قصيدته شكلًا من أشكال النضال في سبيل التمسك بالقيم والثوابت التي تحفظ للإنسان قيمته الوجودية.

المحور الثالث: المدينة والسقوط الحضاري

أحدثت إخفاقات الواقع العربي وانهزاماته هزة عنيفة في كيان الشخصية العربية، وأوجدت أزمة حادة بدت في تساؤلات المثقف العربي بشكل عام، والشاعر بشكل خاص، وهي تساؤلات لا تبحث عن إجابة، وإنما توصِّف مدى الشتات والقهر والهزيمة ومشاهد الانكسار والتردي التي تمكنت من تلك الشخصية.

ولقد كانت المدينة رمزًا وشاهدًا على مظاهر هذا السقوط الذي أخذ بواعثه من الواقع السياسي بأبعاده الوطنية والقومية، ومن ثمَّ كانت المدينة مرادفًا للقهر والعنف والسلطة والاستعمار والاستلاب، وكان رفضها رفضًا لهذا الواقع المهترئ الذي يشوه وجهها بالزيف ومظاهر الانهيار والإحباط، وهو أمام ذلك يُعد شاعرًا ثائرًا في وجه تردي الواقع وانبطاحه، مثلما كان ثائرًا في وجه بشاعة المدينة ومواخيرها، وتلك المواجهة «من معطيات المبدع الثوري الذي يرغب في تثوير واقعه، ونقله إلى عالم أكثر رحابة وجمالًا»[1].

وقد عمد المجاطي إلى مكاشفة هذا الواقع وملامسة تأثيراته من خلال تجسيد المدينة التي دخل معها في خصومة، وهو في هذه القصائد يتحدث عن الواقع الكائن لا عن المحتمل حدوثه، كما أنه ينتقل من حدود مدينته إلى المدينة بوصفها رمزًا قوميًّا يكاشف من خلاله الواقع؛ ليتعرف إلى أسباب السقوط الذي تغرق فيه الأمة، حين تغدو المدينة في هذا المستوى التعبيري قناعًا معبرًا عن التردي الحضاري والمنفى والقهر، «بين ارتباك المشاعر الرومانسية وسيولة

[1] الانفصال والاتصال: ثنائية المدينة والثأر في شعر أمل دنقل، د. عبد الناصر هلال، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م، صـ٢٣.

القمع السياسي والتاريخي المحبط، ومن أجل البحث عن كثافة شعرية وعن معادل موضوعي في الأرض الخراب» [١].

ويمثل توظيف رمز المدينة في دلالة هذا السقوط الحضورَ الأكبر في تجربة المدينة لدى المجاطي، سواء فيما أتى مضمنًا مع معانيه الأخرى، أو عبر قصائده التي أتت منذ عتباتها الأولى في العنوان حاملة تلك الرمزية من خلال إقامة المفارقة الصارخة بين ما عليه الماضي وما عليه الراهن من السقوط والخيبة والإحباط وانكسارات الصمت، كما في قصيدته (خُف حُنين) التي عبرت عن الصمت وديا جير العتمة التي ملأت المدينة، وأثارت باستفهاماتها أسئلة عن مصير "نسر المدينة" الذي طوت العتمة جناحه: [٢]

- كان في عينيكَ خيطٌ من أسىً

يا شاربَ الديجورِ

أيُّ غمامةٍ فتلتكَ حبلًا من دمٍ

ورمتْ بك الدارَ؟

- ظننا النسرَ حطَّ على

مدينتِكمْ

فأينَ مضى؟

- تغلغلَ في الظلام

---

[١] الأدب المغربي الحديث، أحمد المديني، منشورات وزارة الثقافة والفنون، بغداد، سلسلة الموسوعة الصغيرة، (١٣٦)، ١٩٨٣م، صـ٧٠.

[٢] الفروسية، صـ١١٢.

طوى حفيفَ جناحِهِ

المسحورْ

وكما في قصيدته (عودة المرجفين) التي تتكئ في تناصها على استلهام النص القرآني في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلا﴾ [الأحزاب- الآية: ٦٠]، إذ تقوم القصيدة من خلال رمزية المدينة على مفارقة زمنية بين نقيضين، «فتعلي زمن قبل العودة: زمن الفروسية والشهامة واليقين في الثورة والتغيير، وتتبرم من زمن العودة: زمن السقوط والهزيمة واللا يقين»[(١)] ، بل إن عنوان ديوانه الوحيد يحمل بمفارقة عميقة الدلالة ذلك الإحباط التاريخي الذي يجسد سقوطًا حضاريًّا يعيش في ظله الكاتب؛ فما بين الواقع الراهن وبين ما تستدعيه "الفروسية" وقيمها فارق صارخ، بل إنه عنوان يحتشد «بأنماط من السخرية، من عالم سقطت مدنه ورموزه وأبطاله، ولم تبقَ إلا نشوة الغبار في الساحة.. وبعض أصداء "الصهيل الميت" و"النخب الكئيب"»[(٢)].

ومن قصائده التي تتجسد فيها المدينة بتلك الدلالات قصيدة (وراء أسوار دمشق) التي تكشف عتبتها النصية عن معاني الاغتراب والمنفى، فقد استهل المجاطي قصيدته بمدخل نثري للبارودي بعد أن اضطربت نفسه زمنًا في أرض المنفى، ويعمق هذا المضمون الذي ترمي إليه القصيدة إضافة: (من تجليات

---

(١) تلقي النص الشعري المغربي الحديث: نحو مقاربة سيميائية لقصيدة أحمد المجاطي "عودة المرجفين"، د. فريد أمعضشو، الموقف الأدبي، سوريا، المجلد (٤٢)، العدد (٥٠٤)، نيسان، ٢٠١٣م، صـ١٨.

(٢) الشاعر لم يمت، صـ٢٩.

الغربة) إلى عنوانها الذي حملته القصيدة في نشرها بإحدى الدوريات[١]، وتلك الغربة تعبر عن أصداء الواقع الذي أتت فيه قصائد كتبت في حقبة عرفت نكسة حزيران، وانهيار الحلم الناصري، وهي فترة متخمة بالهزائم المعنوية التي تستدعي من الماضي مفارقة الواقع الصارخة والشعور بما فيه من مرارة الهزيمة: [٢]

وتبحثُ عن غُوطةِ الغَرْبِ

في كل ملهىً وفي كل حانةْ

وفي كلِّ دربٍ تجوعُ البنادقُ فيه

وتَعْرَى

وفي كلِّ كأسٍ قرارَتُها

تاجُ كِسْرى

فيهدأ من بردي الموج والريح تهدأُ

حتى الطلولُ

ويعلو مع الصمتِ صوتٌ يقولُ:

- "دمشقُ على سفحِ قَاسْيُونَ بانَهْ

وشاهدُ قبرٍ جفتْه المنونُ

دمشقُ تخونُ"

ويُبحرُ بابُ دمشقَ

---

[١] يُنظر: من تجليات الغربة وراء أسوار دمشق، أحمد المجاطي، مجلة أقلام، المغرب، العدد (٢،٣)، يوليو، ١٩٧٢م، صـ٤٤.

[٢] الفروسية، صـ٨٩.

وملهى الوليدِ

وقصرُ هشامْ

وتُبْحرُ حتى قبورُ الشآمْ

القصيدة تحتشد بدلالات الموت والتلاشي والتغريب والاستسلام وتراجع أسباب القوة عبر شواهد تلك المدينة ودروبها، ولأن كل شيء قد غدا النقيض تجردت معالم المدينة الرمز من دلالتها المعهودة إلى النقيض، فغوطة دمشق التي تعرف بخصوبة أرضها المزهرة حتى عدوها من عجائب الدنيا قد راح يبحث عنها في غوطة الغرب مع الحانات والملاهي، وهي تعبر عن دلالة عميقة للتغريب الذي تعيش فيه المدينة، وهو في ذلك يجعل المكان رمزًا يتكئ عليه في استدعاء الماضي المرتبط بالراهن، واتساقًا مع ذلك الاستدعاء يأتي تناصه القرآني مع قوله تعالى (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى) [طه- الآية: ١١٨] هذه الدلالة التي تربط بين تلك التبعية التي تغرق فيها دمشق- بوصفها نموذجًا للمدائن العربية- وبين سقوطها الحضاري، حين استجابت المدينة العربية لإغواءات التغريب واستجابت لخيانة دورها الذي اغتربت فيه عن حاضرها، وراحت في منفى بعيد عن الوجود الإنساني، حين تخاذلت عن أسباب قوتها، وجاعت في دروبها البنادق وتعرت، وخضعت لكسرى فانكسرت إرادتها أمام هذا الواقع الذي خضعت فيه لانكسارها، وانهزم السيف في يدها، والقلم الناطق على لسانها، في إشارة إلى البارودي رب السيف والقلم:[1]

وقيلَ علا النَّقعُ والطعنُ

حتَّى كبا بعُرابِي الجَوادُ

[1] الفروسية ، صـ٩١.

وقيل تَفَشَّغَ في سرنديبَ الجرادُ

وجفَّ بها الزرعُ

والضرعُ

والخمرةُ البابليَّةْ

ولم يبقَ إلاكَ

للخيلِ والليلِ

والكلمةِ المستحيلةْ

ولم يبق إلاكَ

يبعثُ من قُبة الموتِ فيها

دمشقَ القتيلةْ

وأنتَ على كلِّ ضربةِ فأسٍ

صليبٌ

وكف مجونةٌ ومدادُ

ومع ما تجسده القصيدة من البكاء على جياد الثائرين فإن الشاعر قد خرج من المدينة الواقع إلى المدينة الحلم، جاعلًا من ثنائيته: السيف والقلم مسعى إلى ذلك الحلم بكتابته، منتظرًا إشراقة أمل تبعث في تلك المدائن فجرًا جديدًا، تعود به عاشقة ومعشوقة.

وفي الجمع بين الهُويَّات القُطْرية لمدينة الشاعر (الدار البيضاء، وشاطئ الأطلسي)، وشخصيته الاستدعائية البارودي (القاهرة)، ومدينته الرمز (دمشق، بما فيها من الغوطة وقاسيون وبردى، واللاذقية) تأكيد على ذلك الوجع الجامع

بين المدائن العربية التي تربط بينها المنافي والاغتراب، وما تشهده من سقوط حضاري في التغريب والتبعية.

وتوظيف الشاعر الشخصيات التراثية [١] في التعبير عن هُوية المدينة في معاناتها الحضارية استجداء بتاريخ المدينة العربية للنهوض من هذا التردي، فإذا كانت اللحظة الحضارية الراهنة تدعو إلى الاعتراف بالانهزامية فإنها تدعو في الوقت ذاته إلى استدعاء الماضي، في محاولة للتماسك أمام بواعث الانكسار ومظاهره من ناحية، ومساءلة هذا الواقع بما فيه من أسباب التردي والسقوط الحضاري من ناحية أخرى، ومن ثمَّ كانت المدينة العربية جزءًا من إدانة هذا الواقع ومساءلته، يستوي في ذلك الحديث عن الماضي/ وقائع التاريخ، والحديث عن الراهن/ الواقع؛ فكلاهما يرتبط ارتباطًا مباشرًا بالتعبير عن أزمة الهوية، وهو ما يفسر هذا الحضور الطاغي للتراث في تجربة المجاطي الذي يأتي في مواجهة هذا التغريب، حيث أظهرت النصوص بوضوح ارتباط وجع المدينة بالهوية وما تستدعيه من مضامين ثقافية واجتماعية وحضارية.

وفي قصيدته (دار لقمان عام ١٩٦٥) يبكي الشاعر أطلال مدينته، ويجسد بكاؤه مفارقة أخرى من مفارقاته، حين تتحول المدينة الشاخصة إلى طلل يُبكى:[٢]

يا دارَنا البيضاءَ

من أسْرى بريشٍ من جناحِ الليلِ

في عينيكِ

---

[١] حفلت القصيدة باستدعاء عديد من الشخصيات التاريخية– وهي سمة من سمات البناء الفني في كثير من قصائده– سواء نصت عليها القصيدة: (الوليد، هشام، عرابي)، أو أتت في إطار التناص التاريخي بقرائن نصية من مقولات الشخصية: (البارودي، المتنبي).

[٢] الفروسية، صـ٣٥.

دقَّ الفجرَ مِسمارًا

يا دارَنا

حتى كأنَّ الموجَ غمرٌ

من أريجِ الموتِ

باتَ في دمي

يحصدُ بالظلمةِ أزهارًا

فمن غدًا يحملُني للحقلِ

أو يصبُّني في ظمأ الصحراءِ

أنهارا

حفرتُ هذا القبرَ

لم أدفن سوى سيفِي

وباتت صَيْحتي

فأسًا وتابوتًا وأحجارا

يجسد النص صورة تتداخل في بنائها مكونات شكلتها رؤية الشاعر للواقع الحضاري الذي يخاطب فيه مدينته الرمز، تبدأ تلك المكونات من حيث العتمة التي تأتي في تجسيد مشهد السُّرى بجناح أخذ ريشه من ظلمة الليل، مغصوبة فيه عينا مدينته، ثم تلك الرائحة التي يغمرها أريج موت في حصاد الأزهار، وهي مفارقة عميقة الدلالة تعكس ما يعيش فيه العربي على المستويات الفردية والاجتماعية والإنسانية، وما يحيا فيه من إخفاقات واقع معتم، أزهاره موت وثماره خراب، وبدلًا من الصعود الحضاري الذي يتأسس على تاريخ متراكم يكون تجسيد الواقع بتلك العتمة والقتامة.

وفي قصيدة (القدس) يجسد المجاطي انكسار المدينة العربية، متنقلًا بين المدائن: "فلسطين، وهران، مكة، سيناء"، رابطًا بينها بالموت والخوف والقهر والتردي: [1]

وتلْتفتينَ لا يبقى معَ الدَّمِ

غيرُ فجرٍ في نَواصيكِ

وغيرُ نعامةٍ رَبْداءْ

وليلٍ من صريفِ الموتِ

قصَّ جوانحَ الخيمةْ

تصبِّينَ القبورَ

وتشربينَ

فتظمأ الصحراءْ

ظمئنا

والرَّدى فيكِ

فأينَ نموتُ

يا عمَّةْ

وفي القصيدة معانٍ تتجاوز الدلالات المباشرة لمجرد تعبير عن قضية من قضايا الهم القومي إلى دلالات أخرى تقدم فيها المدينة إدانة لهذا السقوط الحضاري، إذ على الرغم من أن «عنوان القصيدة حدد مبدئيًا قصد الرسالة المحتمل لمن كانت له خلفية معرفية حول القدس وتاريخها والأحداث التي

[1] الفروسية ، صـ٥٨.

تعرضت إليها قديمًا وحديثًا»[١] ، فإن السقوط الحضاري في الواقع العربي الذي ترمز إليه المدينة كان أكثر حضورًا من مجرد وجع استلاب مدينة عربية، وهو ما تفسره الدلالات المعجمية التي تحتشد بها القصيدة، بين الردى والموت، والتيه والعتمة، وخرائب مكة وصمت طور سينينا، وغيرها من الألفاظ التي تترك لنا في ظل نص رمزي تأويلًا بمعاني السقوط والتيه والانكسار والتردي التي تخضع لها المدينة العربية، ويعمق هذا التأويل احتشادُ تجربة المجاطي بالمدن العربية التي ترمي إلى السقوط الحضاري الذي لم يأتِ مرتبطًا بمدنه المغربية التي أوردتها قصائده كالدار البيضاء، الرباط، مراكش، تطوان، وإنما تضمنت غيرها من المدن والأماكن العربية التي تتوزع على جغرافيا هذه العواصم، وتحمل ملامح الهوية والقومية كطور سينين، مكة، دمشق، وهران، صنعاء، وفي ضوء ذلك يكون الخطاب عن مدينته خطابًا مفتوحًا على مدائنه العربية التي تمثل هويته الحضارية كلها، فالمأساة أوسع في بواعثها ومظاهرها من الفضاء المكاني الذي يكتب منه، لتصبح المدينة فضاءً معبرًا عن الهوية العربية، يقول في قصيدته (مدينتي):[٢]

مَـــدينتي صـــمتٌ ووقفـــةُ انحنـــاءٍ طيعـــةْ
وبضـــعةٌ مـــن أعظـــمٍ مـــع الأســـى مضـــطجعةْ

---

[١] دينامية النص: تنظير وإنجاز، د. محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، المغرب، ١٩٨٨م، صـ٦٠. (وفي تأويل هذا النص لفك مستغلقاته بوصفه نصًّا رمزيًّا- على الرغم من مباشرة العنوان- لا يسلم معانيه للقارئ من مطالعته السطحية؛ لجأ الكاتب إلى تصنيف معجم الألفاظ إلى ستة محاور: القدس المقدسة، الجو الجنائزي، الهزيمة، فقد التاريخ والشرف، موقف الحكام، ماضي إسرائيل وحاضرها، حتى يأخذنا إلى وجهة المعنى في سراديب القصيدة، (يُنظر: المرجع ذاته، صـ٦٠ وما بعدها).

[٢] مدينتي، أحمد المجاطي، مجلة أقلام، العدد الرابع، سبتمبر 1964م، صـ٨.

لم تعصـفِ الـريحُ بهـا منـذ قـرونٍ أربعـةْ

وكما أن الحديث في هذا الوجع يتجاوز معنى سقوط مدينة إلى سقوط حضارة بكل مقوماتها فإنه يعبر كذلك عن مصير المستقبل المرتهن بهشاشة الراهن، ويتداخل في بواعثه قهر المستعمر، وقهر الاستبداد والنفي الذي تمارسه المدينة في دورها السياسي، وأمام هذا القهر ثمة شعور العجز عن المواجهة حين يسير مرغمًا بالصمت.

وتأتي معاناة المجاطي في الاغتراب الحضاري الذي شكّل لديه في القصيدة ذاتها شعورًا بمأساة "سيزيف" رمز المعاناة الأبدية نتيجة تلك الكبوات التي تعانق واقعه، ومن تصاعد الشعور بالضعف والتصدع وانعدام الحيلة الذي يغتال يقينه بذاته وهويته، ورغم تلك المعاناة بمظاهرها يحاول تغيير الواقع ولكن تعجزه الوسائل؛ ليقع فريسة يأس وضعف أمام محاولات التغيير المحكوم على مصيره بالفشل، «فالإحباط الذي تقدمه المدينة أنواع، وأبشعها هذا النوع الذي يجد الشاعر فيه نفسه وقد وقع في أسْر "الدائرة المحكمة"، لا يستطيع الفكاك منها، ولا يستطيع استيعابها، فضلًا عن تغييرها»[1] ، وهو ما تكشف عنه قصيدته (أكزوديس في الدار البيضاء) التي تعبر عن إحدى كبوات حضارته أمام قوى الاستعمار الغربي والصهيوني:[2]

جـراحُ اليَـأسِ تصـرُخُ في صـلاتي أدْمعـا وتُـرابْ
وأُدْلِـجُ جَفْنِـيَ المَكْـدود نَعلـي والمـرادُ سـرابْ

---

[1] الشاعر والمدينة، محمود الربيعي، عالم الفكر، وزارة الإعلام، الكويت، المجلد التاسع عشر، العدد الثالث، ١٩٨٨م، صـ١٦٣.

[2] أكزوديس في الدار البيضاء، أحمد المجاطي، مجلة الآداب، بيروت، السنة الثانية عشرة، العدد الثالث، مارس 1964م ، صـ٨٤

وتفْـتَحُ عَشْـوَةَ العَيْنَـيْنِ بِضْـعَةُ أضْـلُعٍ وجـرابْ
وتجـأرُ في ضـميري نجـدةٌ مذبوحـةٌ وعتـابْ
فـأينَ أفـرُّ لا نَفَـقٌ تَغَلْغَـلَ في الثَّـرى وانْسـابْ
ولا كـف تهُـدُّ السُّـورَ، تَغْسِـلُ لَعْنَـةَ الأحْقَـابْ

ولم تكن تجربة المجاطي في المدينة الرامزة إلى السقوط الحضاري مرهونة بمرحلة صدمة أو حدث عابر، وإنما كانت معاناة راسخة على امتداد تجربته بامتداد بواعث تلك المعاناة، ومن ثمَّ أتى صوته الشعريَّ عابرًا حدود تجربة المدينة إلى آفاق حضارية تُسائِل القيم والثوابت، متحررًا من محدودية الأحداث، لتغدو تجربة يشكل روافدها «حرصه على النفاذ إلى لب المبادئ خارج نطاق الأفراد والأحداث الزائلة، ومن ثمَّ ضمن لشعره صيرورة في الزمن يجعل منه شعرًا متذوَّقًا عبر الأجيال»[1]، وهو في ذلك يعمل على استدعاء التاريخ بوصفه مشتركًا ثقافيًّا وحضاريًّا بين تلك الأجيال المتعاقبة، سابقها ولاحقها، كما أنه يقيم بهذا الاستدعاء مفارقة بين الماضي والراهن، يقول في قصيدته (سبتة):[2]

آتي على صَهوةِ الغيمِ
آتي على صَهوةِ الضيمِ
آتي على كل نَفْعٍ يُثارُ
وآتيكِ
أمنحُ عينيكِ لونَ سُهادي

[1] أحمد المجاطي: ملامح من سيرته وشعره، إبراهيم السولامي، آفاق، اتحاد كتاب المغرب، المغرب، العدد (٥٨)، يناير، ١٩٩٦م، صـ٣٤.
[2] الفروسية، صـ٧٣.

وحزنَ صهيلِ جَوادي

وأمنحُ عينيكِ صولةَ طارقْ

وأسقطُ خلفَ رمادِ الزمانِ

وخلفَ رمادِ الزَّوارقْ

تتجسد المفارقة في هذا التناقض الحاد بين ما عليه الصورة الذهنية لماضي المدينة الذي ترسمه نقع الفتوح وصهيل الخيول، وصولات طارق بن زياد، وبين واقعها الذي غدا ضيمًا وغيمًا وقهقهات سكارى، «إنها المفارقة بين ماضي مدينة سبتة وحاضرها، فبعدما كانت مَعْبرًا لطارق إلى الأندلس، إلى غرناطة وإلى تأكيد الوجود العربي الإسلامي أصبحت أسيرة تعج بكل مظاهر الضياع والسقوط»[(١)].

إن تلك الأزمة الحضارية التي تعكسها المدينة في تجربة المجاطي تتكشف فيما يعيشه الإنسان المعاصر من مفارقات صارخة بين الماضي والحاضر، وهي في ذلك تُسائِل بل وتدين تلك الأسباب التي أدت إلى تصدع هُوية العربي وأفضت به إلى انهزاماته.

---

(١) شعرية المتخيل وصور المدائن في ديوان الفروسية، صـ١٣٠.

الخاتمة

بعد أن عرضت الدراسة عبر محاورها الثلاثة المطروحة لتجربة المدينة لدى الشاعر المغربي أحمد المجاطي، بما تعكسه من أزمة الهوية ومساءلة الواقع الحضاري، يمكننا أن نخلص إلى عدة نقاط أساسية، نجملها في التالي:

١- معاناة المجاطي في المدينة كانت فيها (الأنا) في مواجهة ذاتها حين تمارس الانفلات الأخلاقي، وأدواء الفردية، والظلم الاجتماعي، كما كانت في مواجهة (الآخر) كذلك حين يمارس التهميش الحضاري، والاستلاب الثقافي؛ بما يعكس قلق التذويب وضياع الهوية بمفردات ثقافتها.

٢- هذه المعاناة التي ينطلق فيها المجاطي من بواعث ذاتية واجتماعية وسياسية وحضارية تتشكل في النهاية بدلالتها الإنسانية، لتصبح المدينة من الهمِّ المفعم بأوجاع المدينة، إلى القضية بشتى مستوياتها، إلى الرمز المعبر عن مأساة الإنسان وانكساراته في ذلك المصير الكوني؛ وهو ما يمنح تلك النصوص بُعدها الإنساني، ويدرأ عن الأدب- بوصفه جزءًا أصيلًا من حركة الحياة- التقيد بحدود ضيقة في أثره الإنساني، ويعمل في الوقت ذاته على تطهير الإنسانية من أدران الحضارة وانعكاساتها المادية التي تمس نقاءها وفطرتها السوية.

٣- أظهرت الدراسة أن كثيرًا من أوجاع الإنسان المعاصر تتشكل في إطار واقعه الحضاري الذي يكشف عنه الصراع الإنساني مع معطيات الحضارة التي أوجدت في وجهها القبيح تأزمًا عميقًا أحدثته أطماع الإنسان، وتصدعات هويته في ذلك السقوط الحضاري، واغترابه الحاد بين مفاهيم جديدة تنكرت لقيم وثوابت أساسية تشكل قيمة وجوده.

٤- الدراسة تظهر ضرورة مزيدٍ من الانفتاح على أدب المغرب العربي الذي تعبر أصواته الإبداعية عن انشغال عميق بأزمات واقعها الحضاري ومكاشفة مهدداته وتحدياته.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

١- أكزوديس في الدار البيضاء، مجلة الآداب، بيروت، السنة الثانية عشرة، العدد الثالث، مارس 1964م.

٢- الفروسية، منشورات المجلس القومي للثقافة العربية، المغرب، ط١، ١٩٨٧م.

٣- مدينتي، مجلة أقلام، المغرب، العدد الرابع، سبتمبر، ١٩٦٤م.

٤- مذكرات مشردة، مجلة أقلام، المغرب، العدد السادس، نوفمبر، ١٩٦٤م.

٥- من تجليات الغربة وراء أسوار دمشق، مجلة أقلام، المغرب، العدد (3،2)، يوليو، ١٩٧٢م.

٦- وراء الجزر، مجلة أقلام، المغرب، العدد الأول، يناير، ١٩٦٤م.

ثانياً: المراجع

1- اتجاهات الشعر العربي المعاصر، د. إحسان عباس، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد الثاني، فبراير، ١٩٧٨م.

2- أدباء في المقدمة، رجاء النقاش، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، كتابات نقدية، (١٣٤)، مايو، ٢٠٠٣م.

3- الأدب المغربي الحديث، أحمد المديني، منشورات وزارة الثقافة والفنون، بغداد، سلسلة الموسوعة الصغيرة، (١٣٦)، ١٩٨٣م.

٤- الانفصال والاتصال: ثنائية المدينة والثأر في شعر أمل دنقل، د. عبد الناصر هلال، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م.

٥- تيار رفض المجتمع في الشعر العربي الحديث في مصر، د. سعد دعبيس، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٢م

٦- الحداثة في الشعر العربي المعاصر: بيانها ومظاهرها، الشركة العالمية للكتاب، د. محمد العبد حمود، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.

٧- دينامية النص: تنظير وإنجاز، د. محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، المغرب، ١٩٨٨م.

٨- الشعر العربي المعاصر: قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، د. عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، ط٣، د. ت.

٩- شعرنا الحديث إلى أين، د. غالي شكري، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٩١م.

١٠- قاموس الأدب العربي الحديث، إعداد وتحرير: حمدي السكوت، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٩م.

١١- المدينة في الشعر العربي المعاصر، د. مختار علي أبو غالي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، (١٩٦)، أبريل، ١٩٩٥م.

ثالثاً: الدوريات:

١- أحمد المجاطي: ملامح من سيرته وشعره، إبراهيم السولامي، مجلة آفاق، اتحاد كتاب المغرب، المغرب، العدد (٥٨)، يناير، ١٩٩٦م.

٢- بنية السقوط والانتظار في ديوان الفروسية لأحمد المجاطي، حسن الرموتي، مجلة طنجة الأدبية، المغرب، العدد (٢٦)، مايو، ٢٠١٠م.

٣- تلقي النص الشعري المغربي الحديث نحو مقاربة سيميائية لقصيدة أحمد المجاطي «عودة المرجفين»، د. فريد أمعضشو، مجلة الموقف الأدبي، سوريا، المجلد (٤٢)، العدد (٥٠٤)، نيسان، ٢٠١٣م.

٤- الشاعر لم يمت، أحمد اليبوري، مجلة آفاق، اتحاد كتاب المغرب، المغرب، العدد (٥٨)، ١٩٩٦م.

٥- الشاعر والمدينة، محمود الربيعي، عالم الفكر، وزارة الإعلام، الكويت، المجلد التاسع عشر، العدد الثالث، ١٩٨٨م.

٦- شعرية المتخيل وصور المدائن في ديوان الفروسية، سعيد الفراع، مجلة علامات، المغرب، العدد (٣٢)، ٢٠٠٩م.

٧- نيكرولوجيا: شعرية المجاطي.. نثرية خير الدين، بشير القمري، مجلة المناهل، المغرب، العدد (٥٠)، مارس، ١٩٩٦م.

محتوى البحث

مدخل
المحور الأول: المدينة وشكوى الشتات
المحور الثاني: المدينة والسقوط الأخلاقي
المحور الثالث: المدينة والسقوط الحضاري
الخاتمة
المصادر والمراجع
محتوى البحث